الأصوات غير الإنسانية في القرآن الكريم : دراسة دلالية

أ.م محمد احمد زكي المرزوك

جامعة بابل/ كلية التربية الاساسية قسم اللغة العربية

Inhuman voices in the Holy Qur'an: a semantic study

Prof. Mohamed Ahmed Zaki Al-Marzouk

University of Babylon/ College of Basic Education/ Department of Arabic Language

Abstract

The non-human voices in the Holy Qur'an occupy a distinguished position because of their important impact in this type of semantic studies in one aspect of the language, which is the profession, because they introduce us to these non-human voices in the Holy Qur'an.

The first topic: titled (vocal increments such as laughter, crying and screaming), and the second topic: it was titled (non-human sounds such as the sounds of animals and machines).

Keywords: vocal increments, non-human sounds, the Holy Quran, study, semantics.

الملخص

تحتل الأصوات غير الإنسانية في القران الكريم مكانة متميزة لما لها من اثر مهم في هذا النوع من الدراسات ذات الدلالية في ناحية من نواحي اللغة وهي المهنة لِأنها تعرفنا بهذه الأصوات غير الإنسانية في القران الكريم ومن هذا المنطلق والاهمية لتلك الأصوات (غير الانسانية) في القران الكريم شرع الباحث الى الكتابة فيها فجاء بحثه متضمناً بجانب في جوانب تلك الدراسة وسمي بحثه بـ (الأصوات غير الإنسانية في القران الكريم) وجاء البحث بمبحثين:

المبحث الأول : حمل عنوان (الزيادات الصوتية كالضحك والبكاء والصراخ)، أمَّا المبحث الثاني: فقد كان بعنوان (الأصوات غير الإنسانية كأصوات الحيوانات والالات) والغرض من المبحثين هو لمعرفة فوائد التعبير القرآني وصفوتِهِ من خلال سياق الكلام.

الكلمات المفتاحية : الزيادات الصوتية، الاصوات غير الانسانية، القرآن الكريم، دراسة، دلالية.

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمعين أبي القاسم محمد المصطفى وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه المنتجبين، أما بعد :

فالقرآن الكريم كتاب لا تفنى عجائبه،، وضعت ألفاظه لدى حكيم خبير، فكل كلمة في لغة التنزيل قد وضعت قصدا، واختص بحثي بدراسة جانب من جوانب الدرس الصوتي الذي يُعني بالأصوات، فكان بعنوان (الزيادات الصوتية والاصوات غير الانسانية في القرآن الكريم / دراسة دلالية)، وهو بحث جديد في عنوانه اذا لم أعثر – بحسب ما اطلعت – على من كتب بهذا العنوان في لغة التنزيل.

وكان منهجي في بحثي هذا هو المنهج الوصفي التحليلي، وذلك بذكر الجذر اللغوي للمفردة القرآنية محل الدرس أولا، ثم مراقبة معناها في كتب المعجمات العربية في الغالب، مستشهدا ببعض النماذج من النصوص القرآنية الخاصة بتلك المفردة بلحاظ السياق وظروف النص، ومن ثم رصد أقوال المفسرين وأرباب المعاني في الآية المراد بيانها، محاولا في الغالب الكشف عن فوائد التعبير القرآني والنكت الدلالية فيها، وقد قام البحث على تمهيد ومبحثين مذيلة بخاتمة، ذاكرًا بعدها قائمة بروافد البحث. وكان للتمهيد عنوان (لمحة عن الدلالة الصوتية وأقسامها)، ذكرت فيه مفهوم علم الدلالة، ومناهج دراسة المعنى، ثم بيان مفهوم الدلالة الصوتية، وأقسام دراسة الصوت اللغوي مبيناً الجانب الذي اختص بموضوع البحث.

عنوان المبحث الأول (الزيادات الصوتية أو الأصوات غير الكلامية) درست فيه بعض الألفاظ التي تصاحب الأداء الكلامي في الخطاب المنطوق وتشارك في الدلالة، أو يفهم المستمع منها معنى كالضحك والبكاء، والصراخ، وغيرها وكان المبحث الثاني بعنوان (الأصوات غير الإنسانية) التي تعنى بالأصوات التي يكون مصدرها غير إنساني، وقد قسمته على ثلاث أقسام درست في الأول بعض أصوات الحيوانات، واختص الثاني بدراسة بعض الآلات، وكان لتسمية بعض أسماء القيامة بصفاتها نصيب في القسم الثالث، وذكرت في الخاتمة أهم النتائج التي توصل إليها مع قائمة بمصادر البحث ومراجعه.

لمحة عن الدلالة الصوتية وأقسامها :

تعدد مفهوم علم الدلالة في الدرس اللغوي الحديث، وعرف بأنه : العلم الذي يختص بدراسة المعنى ونظرياته، أو ذلك الضرب الذي من شأنه دراسة الشروط الواجب توافرها في الرمز حتى يكون قادرا على حمل المعنى، سواء أكان ذلك الرمز لغويا وآلته الأصوات اللغوية وغير اللغوية، أو رمزا غير لغوي كأن تكون علامات على الطريق أو صور اصطلاحية، أو إشارات باليد أو إيماءات بالرأس (مما عُرف بحركات الجسد أو الحركات الجسمية)، وغير ذلك من الرموز التي تؤدي دلالة في التواصل الاجتماعي(١).

وتعددت مناهج دراسة المعنى في الدرس اللغوي الحديث فكانت للغويين جملة نظريات من مثل النظرية الإشارية والتصورية، والنظرية السلوكية، ونظرية السياق، ونظرية الحقول الدلالية وغيرها(٢).

وتعد الدلالة الصوتية في ورقتنا البحثية قسما من الأقسام أربعة في أنواع الدلالات عند اللغويين، وهي: الدلالة الصوتية، والدلالة الصرفية، والدلالة النحوية، والدلالة المعجمية(٣).

والدلالة الصوتية – كما عرفها – الدكتور ابراهيم أنيس– هي التي تُستمد من طبيعة بعض الأصوات(٤).

وتقسم دراسة الصوت اللغوي على قسمين :

القسم الأول هو: علم الأصوات النطقي الذي من شأنه دراسة الجهاز النطقي، ومخارج الأصوات وكيفية إنتاج الصوت اللغوي، وتقسيم الأصوات على صوامت وصوائت وشبه الصوائت التي تأتلف لتكون كلمات، وتتنظم مع بعضها لتكون جملا(٥).

والقسم الثاني: وهو ما يعرف بـ (علم الأصوات الوظيفي)، أو ما يسمى بالعناصر الصوتية الثانوية التي تتحقق من مجموع تأليف كلمات الجملة وطريقة أدائها الصوتي ومظاهر هذا الأداء، وهو ما يطلقون عليه أيضا بالصوت فوق التركيبي، وهو ملامح صوتية مصاحبة تمتد عبر أطوال متنوعة في الأداء الصوتي وتشارك في تنوع معاني الكلام مثلما تشارك فيه الأصوات التركيبة، وتسمى العناصر الصوتية فوق التركيبية

كذلك بالمصاحبات اللغوية أو السمات شبه اللغوية المصاحبة للأداء الكلامي(٦) وتتمثل في ثلاثة أنواع :

النوع الأول : وهو ما يعرف بـ " السمات التحبيرية الصوتية، أو ما يسمى بالتطريز الصوتي، وهي التي تصاحب الكلام أو الخطاب المنطوق وتتمثل في النبر، والتنغيم، والوقفات أو السكتات الكلامية أو الفواصل، ومعدل الأداء الكلامي ودرجة الصوت

---

(١) ينظر : علم الدلالة : د. أحمد مختار عمر : ١١، والتحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة: د. محمود عكاشة :٩.

(٢) ينظر : علم الدلالة : د. أحمد مختار عمر : ٥٤ – ١١٣، وعلم اللغة مقدمة للقارئ العربي : ٣٠٠–٣١٢.

(٣) ينظر : دلالة الألفاظ : د. ابراهيم أنيس : ٤٤ وما بعدها.

(٤) بنظر : دلالة الألفاظ : ٤٦.

(٥) ينظر: الأصوات اللغوية : د. ابراهيم أنيس : ٥–٨٠، ودراسة الصوت اللغوي: د. أحمد مختار عمر : ٩٩–١٣٤، وعلم اللغة مقدمة للقارئ العربي :١٣٠– ١٨٧

(٦) ينظر : التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة: د. محمود عكاشة : ١٨ – ١٩:، والدلالة الصوتية في اللغة العربية : ٤٩

وصفته وقوته "[٧].، ويطلق عليها فيرث ومدرسته البروسودات أو الظواهر التطريزية[٨]، وقد أولى اللغويون المحدثون هذه الظواهر الصوتية عناية واضحة فوقفوا عند مصطلحاتها بيانًا وتوظيفا لغويا[٩]، وعلى العموم فهذه الظواهر الصوتية لا علاقة لها ببحثي.

النوع الثاني : الزيادات الصوتية أو الأصوات غير الكلامية.

النوع الثالث : الأصوات غير الإنسانية[١٠].

وسيكون بحثي متعلقا في النوعين الثاني والثالث باستظهار البعد الدلالي فيهما في القرآن الكريم، بلحاظ القرائن السياقية معرجاً على خصوصية التعبير القرآني فيهما .

المبحث الأول

الزيادات الصوتية أو الاصوات غير الكلامية

الزيادات الصوتية أو الاصوات غير الكلامية : وهي الاصوات التي تصاحب الأداء الكلامي في الخطاب المنطوق وتشارك في الدلالة، أو يفهم المستمع منها معنى، ومن مصاديقها : الضحك، والبكاء، والصراخ، والسعال، والنحنحة، والتأوه، وغير ذلك من الأصوات[١١].

وقد حفل القرآن الكريم ببعض هذه الزيادات الصوتية التي رافقت الأداء الكلامي فتركت أثرها في المستمعين، وكان لها دور في التواصل – بلحاظ القرائن السياقية في المسرح اللغوي، أذكر منها ما يلي :

الضحك :

الضحك في الدرس المعجمى هو : " انبساط الوجه وتكسر الأسنان من سرور النفس، ولظهور منه "[١٢].

الأسنان عنده سميت مقدمات الأسنان الضواحك. واستعير الضحك للسخرية، فقيل: ضَحِكْتُ، وبين ابن عاشور في (التحرير والتنوير) كيفيته فهو : " كيفية في الفم تتمدد منها الشفتان وربما أسفرنا الأسنان وهي كيفية تعرض عند السرور والتعجب من الحسن " [١٣].

ومنه قوله تعالى في حديثه عن مشركي قريش : (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ ﴿وإِذا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغامَزُونَ) [المطففين : ٢٩ – ٣٠].

فنظر الاصوات اللغوية: د. ابراهيم انيس.

وكان لسياق الموقف المتمثل بأسباب النزول أثره في إيضاح تلك الفضلة الصوتية ، فقد أثر بأن الذين أجرموا من كفار قريش وقصد أبا جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأصحابهم من مشرفي مكة، كانوا من الذين آمنوا عمار وخباب وصهيب وبلال وأصحابهم من فقراء المؤمنين.

([٧]) التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة : ٢٠-١٩

([٨]) ينظر : الدلالة اللغوية عند العرب : د. عبد الكريم مجاهد : ١٧٠.

([٩]) ينظر : الأصوات اللغوية : د. ابراهيم أنيس : ٨٠-١٠٦، وعلم اللغة مقدمة للقارئ العربي : ٢٢٤-٢٢٦

([١٠]) ينظر : التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة : ٢٠

([١١]) ينظر :الاصوات اللغوية : د. ابراهيم أنيس –٨٠ ودراته الصوت اللغوي.. احمد مختار عمر ١٣٤-٩٩٠ وعلم اللغة مقدمة للقارئ العربي : ١٣٠ -١٨٧.

([١٢]) مفردات ألفاظ القرآن : ٥٠١ مادة (ضحك)

([١٣]) التحرير والتنوير : ٢٨٢/١٠

يضحكون، وهم يستهزؤون[١٤]، والملاحظ أن النص القرآني قد استعمل الضحك بصيغة الفعل المضارع (يضحكون للدلالة على دوام هذه الفعلة واستمرارها عند مشركي قريش فدلالة الضحك في الآية هو الاستهزاء، فضلة صوتية غير كلامية ، وقد عضد هذا الاستهزاء بحركات الجسد المتمثلة بقوله : (يتغامزون) [١٥]، وهي من متممات حركة العينين، و " أصل الغمز: الإشارة بالجفن أو اليد طلبا إلى ما فيه معاب ومنه قيل: ما في فلان عميرة ، أي: نقيصة يشار بها إليه والعمر في الآية : الإشارة بالجفن والحاجب، والمعنى: يشيرون إليهم بالأعين استهزا[١٦]، وحركات الجسد : هي حركات تصاحب الكلام أو تسد مسده في بعض الأحيان ، من مثل : حركات اليد والأصابع والعيون والشفتين ، وقد تختلف من لغة الى أخرى ، وقد تكون حركات ذات معان موحدة يشترك فيها الناس على اختلاف لغاتهم[١٧].

ووجدت في القرآن الكريم أسلوبا حواريا رائعاً بين نبي الله سليمان (عليه السلام) وبين النملة ، ويظهر هذا جليا حين سار النبي وجنوده فوصلوا وادي النمل ، قال تعالى:(حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا) [النمل: ١٨-١٩] .

فقد جاءت الآية بلفظ (ادخلوا) كلفظ ما يعقل اذ يقال للناس وللملائكة والجن: ادخلوا فإذا ذكرت النمل قلت : قد دخلن ودخلت ، وكذلك سائر ما لا يعقل، إلا أن النمل ههنا قد أجري بجرى الآدميين حين نطق كما ينطق الآدميون[١٨].

والزيادة الصوتية غير الكلامية هو الضحك في قوله تعالى : (فتبسم ضاحكا) ويتوقف ذلك على التوجيه الإعرابي لكلمة (ضاحكا) ، فهي إما أن تكون حالا مؤكدة ؛ لأن تبسم بمعنى : (ضحك) ؛ لأن أكثر ضحك الأنبياء (عليهم السلام) التبسم [١٩]، وإما أن تكون حالا مقدرة ، والمعنى: تبسم شارعا في الضحك وأخذا فيه ، أو تبسم مقدار الصحك، لأن الصحك يستغرق التبسم، والتبسم دون الصحك وهو أوله ويكون من دون صوت ، وأما الضحك فهو عبارة عن الابتداء والانتهاء ، ويكون بصوت خفي ويقتضي مزيدا على التبسم ، وكذلك ضحك الأنبياء (عليهم السلام) [٢٠]، كما ورد في صفة ضحك نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) أو ما يقرب من التبسم ، مثل بدو التواجد كما ورد في بعض صفات ضحكه ، وأما القهقهة فلا تكون للأنبياء[٢١].

وأما الأثر الدلالي من تبسم النبي سليمان (عليه السلام) وضحكه من قولها فهو التعجب من حذرها واهتدائها لمصالحها[٢٢]، وورد في التحرير والتنوير) ((وإنما تعجب من أنها عرفت اسمه وأنها قالت: وهم لا يشعرون فوسمته وجنده بالصلاح والرأفة وأنهم لا يقتلون ما فيه روح لغير مصلحة، وهذا تنويه برأفته وعدله الشامل لكل مخلوق لا فساد منه أجزاه الله على نملة ليعلم شرف العدل ولا يحتقر مواضعه، وأنّ ولي الأمر إذا عدله عدل سرى عدله في سائر الأشياء وظهرت آثاره فيها حتى كأنه معلوم عند ما لا إدراك له)) [٢٣].

البكاء :

---

(١٤) ينظر : الكشف والبيان : ١٠/١٥٧ ، والكشاف : ٤/٧٢٤

(١٥) مفردات ألفاظ القرآن : ٦١٤ مادة (غمز)

(١٦) ينظر معالم التنزيل : ٥/٢٢٧

(١٧) ينظر : معجم علم الأصوات : د. محمد علي الخولي : ٦٧

(١٨) ينظر : معاني القرآن وإعرابه : ٤/١١٢

(١٩) ينظر : معاني القرآن وإعرابه : ٤/١١٢ ، والتبيان في إعراب القرآن : ٢/١٠٠٦ .

(٢٠) ينظر : معالم التنزيل : ٣/٤٩٥، والكشاف : ٣/٣٥٦، والجامع لأحكام القرآن : ١٣/١٧٥

(٢١) ينظر : التحرير والتنوير : ١٩/٢٤٣ .

(٢٢) ينظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٣ / ١٧١ .

(٢٣) التحرير والتنوير :١٩/٢٤٣

البكاء من الزيادات الصوتية أو الأصوات غير الكلامية التي يفهم منها معنى بلحاظ القرائن السياقية، والبكا في الدرس المعجمي، يمدّ ويقصر " فإذا مددت أردت الصوت الذي يكون مع البكاء، وإذا قصرت أردت الدموع وخروجها[٢٤] ومن هنا فالبكاء ممدودا سيلان الدمع عن حزن وعويل "[٢٥]، وهو كيفية في الوجه والعينين تنقبض بما الوجنتان والأسارير والألف، ويسيل الدمع من العينين، وذلك يعرض عند الحزن والعجز عن مقاومة الغلب "[٢٦].

وفي البكاء زيادة صوتية في التنزيل الكريم في سياق الحديث عن الذين أوتوا العلم من مؤمني أهل الكتابين من يهود ونصارى من قبل نزول الفرقان[٢٧]، وذلك في قوله تعالى : قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا) [الإسراء : ١٠٧ – ١٠٩] فقوله (ويخرون للأذقان يبكون) : أي : يسقطون، ويقعون على الوجوه يبكون، وإنما ذكر الذقن وهو مجتمع اللحيين ؛ لأن الساجد أول ما يلقى به الأرض من وجهه هو الذقن، وقد يقال : إن المعنى الظاهر أن يقال: خرّ على وجهه وعلى ذقنه فما معنى اللام هنا ؟ والجواب : أن اللام هنا للاختصاص، فكأنك جعلت الذقن والوجه مختصا به، وفي الآية مبالغة في صفتهم ومدح لهم، وحق لكل من توسم بالعلم وحصل منه

شيئا أن يجري إلى هذه المرتبة، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويذل[٢٨].

وفي ما تقدم تكرير معنوي في قوله: (يخرون للأذقان سجدا)، وقوله: (ويخرون للأذقان يبكون) فقد كرر الخرور للذقن ؛ لاختلاف الحالين، فالأول خرورهم في حال كونهم ساجدين، والثاني: خرورهم في حال كونهم باكين.

ومن التكرير المعنوي : الإتيان بالحال الأول اسما وذلك في قوله : (سُجَّدَاً) للدلالة على الاستمرار ومن ومجيئ الحال الثانية فعلا، وذلك في قوله: (يبكون) للدلالة على التجدد والحدوث، فكأن بكاءهم يتجدد بتجدد الأحوال الطارئة، والعظات المتتالية[٢٩].

وفي البكاء زيادة صوتية بقصد التباكي، أي : تكلف البكاء ما ورد في قصة يوسف (ال) حين جاء إخوته أباهم بعد ما ألقوه في غيابة الجب عشاء[٣٠]، وذلك في قوله تعالى :" وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ" [يوسف: ١٦]

والعشاء: وقت غيبوبة الشفق الباقي من بقايا شعاع الشمس بعد غروبها، والبكاء في الحقيقة : خروج الدموع من العينين عند الحزن والأسف والقهر، وقد أطلق هنا على البكاء المصطنع وهو التباكي. خروج وإنما اصطنعوا البكاء تمويها على أبيهم لقلا يظن أنهم اغتالوا يوسف (عليه السلام) [٣١].

فقوله : (عشاء) منصوب على الظرف، وقوله : (يبكون) جملة فعلية في موضع الحال[٣٢]، وإنما جاء إخوة يوسف (وقت العتمة، بقوله : (عشاء) ؛ ليكونوا أقدر على الاعتدار في الظلمة، ولذا قيل: لا تطلب الحاجة بالليل، فإن الحياة في العينين، ولا تعتذر بالنّهار من ذلب فتتلجلج في الاعتدار[٣٣].

---

(٢٤) الصحاح : ٢٢٨٤/٦ مادة (بكي)

(٢٥) مفردات ألفاظ القرآن : ١٤١ مادة (بكي)

(٢٦) التحرير والتنوير : ١٠/ ٢٨٢

(٢٧) ينظر : جامع البيان : ٥٧٩/١٧

(٢٨) ينظر : معالم التنزيل : ٣/١٦٧، والكشاف : ٢/٦٩٩– ٧٠٠، والجامع لأحكام القرآن : ١٠/ ٣٤١–٣٤٢

(٢٩) ينظر : الكشاف : ٢/٧٠٠، وحدائق الروح والريحان : ١٦/٢٧٥

(٣٠) ينظر : جامع البيان : ١٥/٥٧٧

(٣١) ينظر : التحرير والتنوير : ١٢/٢٣٦

(٣٢) ينظر : إعراب القرآن : النحاس : ١٩٥/٢

(٣٣) ينظر : معالم التنزيل : ٢/٤٨٠، والجامع لأحكام القرآن : ٩/١٤٤.

فالبكاء بوصفه أصوات غير كلامية قد ترك أبلغ الأثر في أبيهم، وهو نبي الله يعقوب (آل) ففزع الله لبكائهم، وإن كان مصطنعا، وهو بذلك قد أتى بثماره لديهم فانعكس فزعا حركة جسمية عند نبي يعقوب، وتصوير حالته تُستشف من قوله تعالى في السياق اللفظي اللاحق : (قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)[يوسف: ١٧]

وقد يكون البكاء والضحك بصيغة الأمر زيادة صوتية أو أصوات غير كلامية، ويراد به الخبر ضربا من التقارب بين أسلوب الإنشاء وأسلوب الخبر، ونلحظ ذلك في ضرب آخر من قبائح أعمال المنافقين الذين تخلفوا – والمخلف المتروك ممن مضى– عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في غزوة تبوك، وهو فرحهم بالقعود وكراهتهم الجهاد[٣٤].

وذلك في قوله تعالى : (فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون) [التوبة:٨٢]

فالأمر بالضحك والبكاء في معنى الخبر، والمعنى: فسيضحكون قليلا ويبكون كثيرا، إلا أنه أخرج على صيغة الأمر للدلالة على أنه عثم لا يكون غيره، وقد روي أن أهل النفاق يكونون في النّار عمر الدنيا، لا يرقا لهم دمع، ولا يكتحلون بنوم[٣٥].

والظاهر أن قوله (فليضحكوا قليلا) فيه إشارة إلى مدة العمر في الدنيا، وفي قوله: (وليبكوا كثيرا) إشارة إلى تأييد الخلود، فجاء بلفظ الأمر ومعناه الخبر عن حالهم[٣٦].

والدليل على تلك الحتمية هو السياق اللفظي اللاحق، وهو قوله بعد ذلك: (جزاء بما كانوا يكسبون والمعنى: أن هؤلاء المنافقين، وإن فرحوا وضحكوا في كل عمرهم، فهذا قليل ؛ لأن الدنيا بأسرها قليلة، وأما حزنهم وبكاؤهم في الآخرة فكثير، لأنه عقاب دائم لا ينقطع، والمنقطع بالنسبة إلى الدائم قليل[٣٧].

والمتحصل أن الضَّحك هنا كناية عن الفرح أو أريد ضحكهم فرحا ؛ لاعتقادهم ترويج حيلتهم على النّبيء حين أذن لهم بالتخلف، والبكاء في الآية : كناية عن حزنهم في الآخرة، فالأمر بالصحك وبالبكاء.

مستعمل في الإخبار بحصولهما قطعا إذ جعلا من أمر الله كما تقدم، وقد يكون أمر تكوين مثل قوله : (فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا) [البقرة : ٢٤٣] [٣٨]، أي : جعل الله فيهم حالة الموت، وهي وقوف القلب وذهاب الإدراك والإحساس[٣٩]، وتقتضي هذه الآية التوبيخ والوعيد، وتقتضي لفظة (المخلفون) في الآية الذم والتحقير[٤٠].

الصراخ :

الأصل في الصراخ الصوت، يقال: صرح الرجل يصرح : إذا صوت، والصرحة: صيحة شديدة عند فزعة أو مصيبة، والصريخ: هو الذي يأتي قوما يستغيث بهم عند غارة، أو ينعي لهم ميتاً، والمصرخ المغيث، والمستصرح: المستغيث، تقول : استصرخني فأصرخته والاصطراج : النّصارخ، والصريح: أيضاً الصارخ وهو المغيث، والمستغيث أيضاً، وهو من الاضداد، والصريح يكون

(٣٤) ينظر : جامع البيان : ١٤/٤٠٣، ومعالم التنزيل : ٢/٣٧٤– ٣٧٥، ومفاتيح الغيب : ١٦/١١٣
(٣٥) ينظر : الكشاف : ٢/٢٩٦
(٣٦) ينظر : البحر المحيط : ٥/٤٧٥
(٣٧) ينظر : مفاتيح الغيب : ١٦ / ١١٤
(٣٨) ينظر : التحرير والتنوير :١٠/٢٨٢
(٣٩) ينظر : م. ن : ٢/٤٧٩
(٤٠) ينظر : البحر المحيط : ٥/٤٧٣

فعيلاً بمعنى مصرح، مثل نذير معنى منذر، وسميع بمعنى مسمع، ثم تجوز به عن الاستغاثة، إذ لا يخلو منه غالبا، ثم صار حقيقة عرفية فيه[٤١] .

وتوجد زيادة صوتية في ذكره (عز وجل) إحدى علامات قدرته في حمله من نجا من ولد آدم في سفينة نوح (عليه السلام)، وذلك في قوله تعالى : (وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ) [يس : ٤١ – ٤٤]

فمعنى حمل الله ذرياتهم في السفينة : أنه حمل فيها آباءهم الأقدمين، وفي أصلابهم هم وذرياتهم وإنما ذكر ذرياتهم دونهم ؛ لأنه أبلغ في الامتنان عليهم، وأدخل في التعجيب من قدرته في حمل أعقابهم إلى يوم القيامة[٤٢]

في سفينة نوح[٤٣] ، وإن شاء الله أغرق هؤلاء المشركين إذا ركبوا الفلك في البحر ،ومعنى (فلا صريخ لهم) أي: فلا مغيث لهم ولا هم ينقذون، ينجون من الغرق[٤٤] والفضلة الصوتية في الآية (الصريخ) : فعيل بمعنى صارخ: أي مستغيث، وبمعنى مُصْرِخ: أي مُغيثٍ ؛ لأن فعيلا من أبنية اسم الفاعل، فمرة يجيء من أصرخ ومرة يجيء من صرخ إذا استغاث، وهي بمعنى مُغِيثٍ هنا، أي: فلا مُغيثَ لهم ولا مُعينَ[٤٥] ومن فوائد التعبير القرآني أنه تعالى قد قال: لا صريخ لهم ولم يَقُلْ ولا مُنْقِذَ لَهُمْ ؛ لأنّ مَنْ لَا يَكُونُ من شأنه أن ينصر لا يشرع في النصرة مخافة أن يُغْلبَ ويَذْهبَ ماءُ وَجْهِه، وإنما ينصرُ ويُغيثُ من يكونُ مِنْ شَأْنُه أنْ يُغيثَ، فقال : لا صريخَ لهم، وأما من لا يَكُونُ من شأنِهِ أنْ يُنقذ إذا رأى من يعز عليه في ضرٍ يَشْرعُ في الإنقاذِ، وإن لمْ يَبْقَ بنفسِهِ في الإنْقَاذِ ولا يَغْلِبْ على ظَنِهِ، وإنَّمَا يَبْذُلُ المَجْهُودَ، فقالَ: ولا هُمْ يُنقَذُونَ ولمْ يقُل ولا منقد لهم "[٤٦].

الصياح :

الصيحةُ: رفع الصوت، والصياح صوت كل شيء إذا اشتدّ، والواحدة منه صيحةٌ، يقال: لقيتُ فُلاناً قبلَ كل صَيْحٍ ونَفْرٍ، فالصِّيْحُ : الصِّيَاحُ، والنَّفْرُ : التَّفَرُّقُ ومِمَّا يُستعار من هذا قوهم: صاحت الشجرة، وصاح الثبث، إذا طال، كأنه لما طال وارتفع جعل طوله كالصياح الذي يدل على الصائح وأصله تشقيق الصوت، من قولهم: انصاح الخشب، أو الثوب : إذا انشق، فسمع منه، صوت، ويقال : صيح الثوب إذا انشق كذلك، ويقال : بأرض فلان شجر قد صاح: إذا طال فتبين للناظر لطوله، ودلّ على نفسه دلالة الصائح على نفسه بصوته[٤٧]

ومن لطائف التعبير القرآني ورود تركيب (إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً) مرتين في سورة (يس) فضلة ومن صوتية أو أصواتا غير كلامية ونجدها في المرة الأولى في سياق ما أنزله الله (ع) من عذاب وهلاك على قوم حبيب النجار وهم أهل أنطاكية في قتلهم إياه لدعائه إياهم إلى الله ونصيحته لهم، وذلك في قوله تعالى (وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ إِنْ كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ)[يس : ٢٩-٢٨]

---

(٤١) ينظر : العين : ٤ / ١٥٨ مادة (صرخ)، ومقاييس اللغة :٣/٣٤٨ مادة (صرخ)، وتهذيب اللغة :٧/٦٣ مادة (صرخ)، والصحاح :١/٤٢٦ مادة (صرخ).

(٤٢) ينظر : جامع البيان :٢٠/٥٢١

(٤٣) ينظر : الكشاف : : ٤/١٨

(٤٤) ينظر : معاني القرآن واعرابه : ٤/٢٨٨:، ومعالم التنزيل : ٤/١٥

(٤٥) ينظر : المحرر الوجيز : ٤/٤٥٥، والبحر المحيط : ٩/٧١، والتحرير والتنوير : ٢٣/٢٩

(٤٦) مفاتيح مفاتيح الغيب : ٢٨٦/٢٦

(٤٧) ينظر : العين : ٣/٢٧٠مادة (صيح)، وتهذيب اللغة : ٥/١٠٨ مادة (صبح)، ومقاييس اللغة :٣٢٤/ ٣ مادة (صبح)، ومفردات ألفاظ القرآن : ٤٩٦، مادة (صاح)

هذه مخاطبة لمحمد (صلى الله عليه وسلم) فيها توعد لقريش إذ هم المضروب هم المثل، أي: ينزل بهم من عذاب الله ما نزل بقوم حبيب النجار، فنفى الله[٤٨] ما أنزل على هؤلاء القوم من جند من السماء كالحجارة والغرق والريح وغير ذلك، وما كنا منزلين إلى أن إنزال الجنود من عظائم الأمور التي لا يؤهل لها إلا مثلك، وما كنا نفعله بغيرك ؛ وفي الآية إشارة إلى هلاكهم بعده سريعا على أسهل وجه فإنه لم يحتج إلى إرسال جند يهلكهم، بل أهلكوا بصيحة واحدة فهم كانوا أيسر وأهون من ذلك[٤٩] ، وتتحصل تلك السرعة من تجيء. إذا الفجائية في الجملة المفرعة على (إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً)؛ لإفادة سرعة الحمود إليهم بتلك الصيحة. وهذه الصيحة صاعقة والحمود في الآية: انطفاء النّار، وقد استعير للموت بعد الحياة المليئة بالقوة والطغيان، ليتضمن الكلام تشبيه حال حياتهم بشبوب النّار وحال مؤتهم بحمودها[٥٠].

وقد يحدث اختلاف في الكلمة بما يغير صورتها في الكتابة ولا يغير معناها، ومن هنا قرأ ابن مسعود الآية – محل الدرس – قرأها (إنْ كانَتْ إلا زَقْيَةً واحِدَةً)[٥١]، وأنكر أبو جعفر النحاس هذه القراءة المصحف فعدت شاذة ؛ ولأن اللغة المعروفة : زقا : يزقو: إذا صاح، فكان يجب على هذا أن يكون إلّا زقوة[٥٢]، وفي كلامه نظر، فالزَقْيَة والزَّقْوة : لغتان، والزُّقاءُ: الصياح، تقول: زقا يزقو، ويزقي زقياً لغتان بالواو والياء، يقال ذلك في صياح الديك ونحوه من الطير، ومنه قراءة ابن مسعود[٥٣].

ونجدها في المرة الأولى في سياق ما أنزله الله (ع) من عذاب وهلاك على قوم حبيب النجار وهم أهل أنطاكية في قتلهم إياه لدعائه إياهم إلى الله ونصيحته لهم، وذلك في قوله تعالى : (وَمَا أَنزلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ إِنْ كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ)[يس : ٢٩-٢٨]

هذه مخاطبة لمحمد (صلى الله عليه وسلم) فيها توعد لقريش إذ هم المضروبُ همُ المثل، أي: ينزل بهم من عذاب الله ما نزل بقوم حبيب النجار، فنفى الله[٥٤] ما أنزل على هؤلاء القوم من جند من السماء كالحجارة والغرق والريح وغير ذلك، وما كنا منزلين إلى أن إنزال الجنود من عظائم الأمور التي لا يؤهل لها إلا مثلك، وما كنا نفعله بغيرك ؛ وفي الآية إشارة إلى هلاكهم بعده سريعا على أسهل وجه فإنه لم يحتج إلى إرسال جند يهلكهم، بل أهلكوا بصيحة واحدة فهم كانوا أيسر وأهون من ذلك[٥٥]وتتحصل تلك السرعة من تجيء «إذا الفُجَائِيَّة فِي الجُمْلَةِ المُفَرَّعة على إنْ كانَتْ إلَّا صَيْحةً واحِدَةً) ؛ لإفادة سرعة الحمود إليهم بتلك الصيحة. وهذه الصيحة صاعقة، والحمود في الآية: انطفاء النّار، وقد استعير للموت بعد الحياة المليئة بالقوة والطغيان، ليتضمن الكلام تشبية حال حياتهم بشبوب النّار وحال موتهم بحمودها[٥٦] وقد يحدث اختلاف في الكلمة بما يغير صورتها في الكتابة ولا يغير معناها، ومن هنا قرأ ابن مسعود الآية – محل الدرس – قرأها) إن كانت إلا زقية واحدة) [٥٧]، وأنكر أبو جعفر النحاس هذه القراءة المصحف فعدت شاذة؛ ولأن اللغة المعروفة : زقا: يزقو : إذا صاح، فكان يجب على هذا أن يكون إلّا زقوة[٥٨]، وفي

(٤٨) ينظر : جامع البيان :٢٠/٥١٠، والكشاف :٤/١٢
(٤٩) ينظر : المحرر الوجيز : ٤٥٢/٤، والجامع لأحكام القرآن : ١٥/٢٠، ومفاتيح الغيب :٢٦/٢٦٨
(٥٠) ينظر : البحر المحيط : ٩/٦٠، والتحرير والتنوير : ٢٣/٦
(٥١) ينظر : غريب الحديث : ابو عبيد القاسم بن سلام : ٣/١٦٠، والإبانة عن معاني القراءات : ٧٦
(٥٢) ينظر : إعراب القرآن : النحاس : :٣/٢٦٤، والمحتسب : ٢/٢٠٦
(٥٣) ينظر : العين : ٥/١٩٢ مادة (زقو)، ومعاني القرآن : الفراء : ٢/٣٧٥
(٥٤) ينظر : جامع البيان :٢٠/٥١٠، والكشاف : ٤/١٢
(٥٥) ينظر : المحرر الوجيز : ٤٥٢/٤، والجامع لأحكام القرآن : ١٥/٢٠، ومفاتيح الغيب :٢٦/٢٦٨
(٥٦) ينظر : البحر المحيط : ٩/٦٠، والتحرير والتنوير : ٢٣/٦
(٥٧) ينظر : غريب الحديث : ابو عبيد القاسم بن سلام : ٣/١٦٠، والإبانة عن معاني القراءات : ٧٦
(٥٨) ينظر : إعراب القرآن : النحاس : :٣/٢٦٤، والمحتسب : ٢/٢٠٦

كلامه نظر، فالزقية والرقوة : لغتان، والرقاء: الصياح، تقول: زقا يزقو، ويزقي زقياً لغتان بالواو والياء يقال ذلك في صياح الديك ونحوه من الطير، ومنه قراءة ابن مسعود[٥٩].

ونجد هذا التركيب إن كانت إلا صيحة واحدة مرة ثانية في سورة (يس) فضلة صوتية أو أصواتا غير كلامية تصويرا لنفخة البعث، وذلك في قوله تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ) [يس : ٥١-٥٣].

وقيل في قوله : (ونفخ في الصور إنها النفخة الأخيرة، وتسمى نفخة البعث[٦٠]وفي استعمال صيغة الماضي (نفخ) في المستقبل وهو يوم القيامة إشارة الى تحقق الوقوع مثل قوله تعالى : أتى أمر الله) [النحل: ١]، والمعنى: وينفخ في الصور، أي وينفخ نافخ في الصور، وهو الملك الموكل به، واسمه إسرافيل. وهذه النفحة الثانية التي في قوله تعالى: (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) [الزمر: ٦٨] [٦١]

والصور هو اسم آلة للنفخ، وهو القرن، وقوله : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ)، أي : فاذا هم يخرجون مسرعين في السير من قبورهم القبور بطريق الجبر والقهر لا بطريق الاختيار، و«إذا» في الآية للمفاجأة، وهي حصول مضمون الجملة التي بعدها سريعا وبدون تهير، ولفظ الرب يدل على الرحمة، واستعماله في سياق الآية مضافا اليهم أحسن ما يكون للدلالة على الهيبة ؛ لأنّ من أساء واضطر إلى التوجه إلى من أحسن إليه يكون ذلك أشد ألما وأكثر ندما من غيره، ويراد بالواو في قوله : (قالوا) الكفار، فلما نفخ في الصور نفخة البعث لموقف القيامة ردت أرواحهم إلى أجسامهم، وذلك بعد نومة ناموها[٦٢].

و(من) في قوله : (من بعثنا): استفهام عن فاعل البعث مستعمل في التعجب والتحسر من حصول البعث (٤)، " والمرقد: استعارة عن مضجع الميت واحتمل أن يكون مصدرا، أي : من ربادنا، وهو أجود. أو يكون مكانا، فيكون المفرد فيه يراد به الجمع، أي من مراقدنا[٦٣].

ثم استأنف بقوله : ما وعد الرحمن ويضمر الخبر حق أو نحوه، وقال الجمهور: ابتداء الكلام هذا ما وعد الرحمن)، واختلف في هذه المقالة من قالها، فقيل : هي من قول الكفرة أي لما رأوا البعث والنشور الذي كانوا يكذبون به في الدنيا قالوا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون، وقالت فرقة ذلك من قول الله تعالى لهم على جهة التوبيخ والتوقيف، وقيل هو من قول الملائكة وقال بعضهم: هو من قول المؤمنين للكفرة على جهة التقريع[٦٤].

ويختلف المعنى بحسب وقف التمام، فالتمام على ما ذهب اليه الجمهور من مرقدنا» ويكون «هذا» في موضع رفع بالابتداء وخبره ما وعد الرحمن»، ويجوز أن يكون «هذا» في موضع خفض على النعت (لمرقدنا)، فيكون التمام من مرقدنا هذا»، ويكون «ما وعد الرحمن» في موضع رفع من جهات : الأولى : أن يكون بإضمار «هذا»، والثانية: أن يكون بمعنى : حق ما وعد الرحمن، والثالثة: أن يكون بمعنى بعثكم ما وعد الرحمن[٦٥] ثم أخبر الله) (أن النفخة الأخيرة، وهو أمر القيامة والبعث من

---

(٥٩)ينظر : جامع البيان :٢٠/٥٣١، والكشف والبيان : ٨/١٣٠

(٦٠) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٣/٣٦

(٦١) ينظر : جامع البيان :٢٠/٥٣١، ومفاتيح الغيب : ٢٦/٢٩١، والجامع لأحكام القرآن : ١٥/٤٠-٤١، والتحرير والتنوير : ٣٦/٢٣

(٦٢) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٣/٣٧.

(٦٣) البحر المحيط : ٩/٧٤.

(٦٤) ينظر : الكشاف: ٤/٢٠، والمحرر الوجيز :٤/٤٥٨، والبحر المحيط : ٩/٧٤.

(٦٥) ينظر : إعراب القرآن : النحاس :٣/٢٦٩، والجامع لأحكام القرآن :١٥/٤٢

القبور ما هو إلا صيحة واحدة، فإذا الجميع حاضر محشور، فإهلاكهم كان بصيحة، وبعثهم وإحياؤهم كان بصيحة[٦٦] وإعادة حرف المفاجأة (إذا) في قوله : (فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ) إيماء إلى حصول مضمون الجملتين المقترنتين بحرف المفاجأة في مثل لمح البصر حتى كان كليهما مفاجاً في وقت واحد[٦٧] والمتحصل في ورود تركيب الجملة القرآنية (إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً) مرتين في سورة [يس] فضلة صوتية أو أصواتا غير كلامية أنها ليست بتكرار ؛ لأن الأولى هي النفخة التي يموت بها الخلق، والثانية : هي التي يحيا بها الخلق[٦٨]

الجأر :

حكى أهل اللغة : جار الرجل، مقصور مهموز، يجار جارا وجؤاراً، إذا صاح ورفع صوته مع تضرع واستغاثة، وهو الجوار، تشبيها بجوار، الوحشيات كالظباء ونحوها من الكلام ما تجاوز موضعه الذي وضع له، والحقيقة ما لم يتجاوز ذلك[٦٩] وهناك زيادة صوتية غير كلامية في التنزيل تصور حال الكفار من قريش[٧٠] في قوله تعالى : (حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ)[المؤمنون : ٦٤-٦٥]

و(حتى) في الآية هي التي يبتدأ بعدها الكلام، والمترفون هم أغنياؤهم ورؤساؤهم من المشركين، وقيل في أخذهم بالعذاب : هو السيف يوم بدر، وقيل : يعني الجوع حين دعا عليهم رسول الله فابتلاهم الله) بالقحط حتى أكلوا الكلاب والخيف[٧١] وقد خصص سبحانه المترفين من المشركين بالذكر مع أن العذاب لاحق بهم جميعا، واقع على مترفيهم وغير مترفيهم لبيان أنهم بعد النعمة التي كانوا فيها صاروا على حالة تخالفها وتباينها، فانتقلوا من النّعيم التام إلى الشقاء الخالص[٧٢]، وقيل : إنما اختصهم بالذكر عرض لأبرز مثل فيهم، وهم المنعمون من المشركين أصحاب المال، والجاه، فهؤلاء إذا أخذوا، وفعل بهم هذا البلاء، كان غيرهم ممن لا مال له ولا جاه أشد خوفا من لقاء هذا العذاب الذي ينتظره[٧٣].

وفي قوله : (إذا هم يجأرون) فضلة صوتية أو أصوات غير كلامية، والمعنى : إذا هم يصيحون ويرفعون أصواتهم بالاستغاثة كما يجار الثور، وهو كناية عن شدة ألم العذاب بحيث لا يستطيعون صبرا عليه فيصدر منهم صراخ التأوه والويل والقبور[٧٤].

ثم أخبر سبحانه أنه يقال لهم حينئذ على جهة التبكيت : لا تجازوا اليوم، فالقول مضمر، أي : يقال لهم : لا تحاروا والجملة مسوقة لتبكيتهم وإقناطهم وقطع أطماعهم ، وخص اليوم بالذكر للتهويل، وجمله إنكم منا لا تنصرون تعليل للنهي على صياحهم، والمعنى إنكم من عذابنا لا تمنعون ولا ينفعكم صراخ ولا استغاثة[٧٥]

---

(٦٦) ينظر : معاني القرآن واعرابه : ٤/٢٩١، ومعالم التنزيل : ٤/١٧، والمحرر الوجيز :٤/٤٥٨

(٦٧) ينظر : التحرير والتنوير :٢٣/٣٩

(٦٨) ينظر : أسرار التكرار في القرآن : ٢١٢-٢١١.

(٦٩) ينظر : جمهرة اللغة :٢/١٠٣٩ مادة (جار)، والأفعال : السرقسطي : ٢/٣٠٦، ومفردات ألفاظ القرآن: ٢١١-٢١٢ مادة (جار).

(٧٠) ينظر : جامع البيان : ١٩/٥٠

(٧١) ينظر : معالم التنزيل : ٣/٣٦٩، و الكشاف : ٣/١٩٣.

(٧٢) ينظر : فتح القدير : ٣/٥٨٠

(٧٣) ينظر : التفسير القرآني للقرآن : ٩/١١٥٣

(٧٤) ينظر : جامع البيان :١٩/٥٠، ومفاتيح الغيب : ٢٦/٣٦٦، والتحرير والتنوير : ١٨ / ٨٤

(٧٥) ينظر : معالم التنزيل : ٣/٣٦٩، وفتح القدير : ٣/٥٨٠

المبحث الثاني

الأصوات غير الإنسانية

هي ضرب من الأصوات التي يكون مصدرها غير إنساني، من مثل : أصوات الحيوانات، ومظاهر الطبيعة مثل : أصوات الرياح وأصوات الكهوف، وحفيف الأشجار بالهواء، إضافة الى الأصوات الصناعية من مثل : أصوات الآلات والأجراس والأبواق، وغيرها التي تستعمل للدلالة على معان معينة[٧٦]

وقد تتاثر هذا الضرب في القرآن الكريم – كما سيأتي بيانه مسوقا بدلالة النص القرآني بلحاظ السياق، يمكن بيان بعض منه كما يلي:

١. أصوات الحيوانات :

زخر القرآن الكريم بذكر الحيوانات في القرآن الكريم، وارتبط بعض منها بأنبياء الله ورسله في القصص القرآني، فها هو نبي الله سليمان (ا) قد علم منطق الطير، قال تعالى : (وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين ([النمل: ١٦]، وقد سمى نبي الله سليمان (ال) صوت الطير منطقا لحصول الفهم منه، كما يفهم من كلام النّاس[٧٧]، والاقتصار على ذكر منطق الطير إيجاز، والمتحقق أنه علم منطق كل صنف الحيوانات كفهمه منطق النمل، وذلك في قوله تعالى : (حتى إذا أتوا على واد النّمل قالت نملة يا أيها النّمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها – [النمل : ١٨ – ١٩] [٧٨].

ومن الأصوات غير الإنسانية تمثيلا لهذا الضرب ما يلي :

الخور:

حكى أهل اللغة أن الخوار على زنة (فَعَال) : صوت الثور، وما اشتد من صوت البقرة والعجل، تقول: خار يجور خورا وحواراً : إذا صاح، فالخاء والواو والراء : أصل يدل على صوت، وقيل إنّ الخوار مختص بالبقر، وقد يستعار للبعير[٧٩].

ومنه ما حدث في قصة موسى(ال) مع وقومه – وفيهم السامري من بعد ما فارقهم الى [٨٠]، وذلك في قوله تعالى : (واتخذ قوم موسى من بعده لمناجاته، ووفاء للوعد الذي كان ربه وعده من خليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين) [الأعراف : ١٤٨].

فقوله : (من بعده) : أي : من بعد انطلاق موسى (ال) إلى الجبل للميقات[٨١]، وقد يقال : لحم قال الله (ل): (واتخذ قوم موسى من بعده من خليهم عجلًا جسداً)، والمتخذ هو السامري وحده؟ والجواب فيه وجهان الأول: أن الله نسب الفعل إليهم، لأن رجلا منهم باشره كما يقال: بنو تميم قالوا كذا وفعلوا كذا والقائل والفاعل واحد، والثاني: أنهم كانوا مريدين لا تخاذه راضين به فكأنهم اجتمعوا عليه[٨٢]

([٧٦]) ينظر : التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة : ٢٠

([٧٧]) ينظر : معاني القرآن : الأخفش : ٢/٤٦٤، وجامع البيان : ١٩ / ٤٣٧، ومعالم التنزيل : ٣/٤٩٣.

([٧٨]) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٣٧/١٩

([٧٩]) ينظر : العين : :٤/٣٠٣ مادة (خور)، والزاهر : ١/٣٩٤، ومقاييس اللغة : ٢/٢٢٧مادة (خور)، ومفردات ألفاظ القرآن : ٣٠٢، مادة (خوار).

([٨٠]) ينظر : جامع البيان : ١٣/١١٧

([٨١]) ينظر : معاني القرآن : النحاس : ٠٨١/٨٠–٣

([٨٢]) مفاتيح الغيب : ٣٦٨/١٥، وينظر : الكشاف :٢/١٥

و(من) في قوله : (من خليهم) للتبعيض [٨٣]، والحلي: اسم لما يتحسن به من الذهب والفضة[٨٤] وإنما أضاف الحلي إلى بني إسرائيل ؛ لأنه كان لهم عيد يتزينون فيه، ويستعيرون من القبط الخلي وكانت بنو إسرائيل في القبط بمنزلة أهل الجزية في الإسلام، فاستعاروا خلي القبط لذلك اليوم، فلما أغرق الله القبط بقيت تلك الحلي في أيدي بني إسرائيل، ويروى أن السامري حين ذهب موسى إلى المناجاة خاطب هارون (ال) : بأن بني إسرائيل قد بددوا الحلي الذي استعير من القبط وتصرفوا فيه وأنفقوا منه، فلو جمعته حتى يرى موسى فيه رأيه ؟ فجمعه هارون فلما اجتمع قال للسامري أنت أولى الناس بأن يختزن عندك، فأخذه السامري وكان صائغا فصاغ منه صورة عجل[٨٥].

و (العجل) في قوله : (عجلا جسدا له خوار :(: هو ولد البقرة، والجسد هو الذي لا يعقل ولا يميز، فمعنى الجسد هنا هو معنى الجثة، و«الخوار » صوت البقر[٨٦] والخوار مثل الجؤار وهو : الصياح، وقد قرأ الإمام علي (عليه السلام) : (عجلًا جسدا له جواز (بالجيم والهمز، وكل من لغات العرب[٨٧] والمشهور عند أهل التفسير أن خروج ذلك الصوت من العجل صوتنا غير إنساني كان بحيلة صناعية من السامري بأن جعل في باطنه تحويفا على تقدير من الصيق مخصوص، واتخذ له آلة نافحة خفية، فإذا حركت آلة النّفخ الضغط الهواء في باطنه، وخرج من المضيق[٨٨] واحتج الله (عز وجل) (على فساد مقالتهم بأن اتخذوا العجل إلها بالسياق اللفظي اللاحق وهو قوله : (ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين)، وتقريره: أن هَذَا العجل لا يمكنه أن يكلمهم، ولا يمكنه أن يهديهم إلى الرشد والصواب سواء أكان جمادا جسدا أو حيواناً، وفي كلتا الحالتين سيكون عاجزا لا يصلح للإلهية[٨٩].

الضُبح:

ورد في كتب أهل اللغة أن (الضبح) تدل على أمرين : الأول: تغير لون من فعل نار ، تقول : ضبحث العود بالنار : إذا أحرقت من أعاليه شيئاً، وكذلك حجارة القداحة إذا طلعت كأنها محترقة: مضبوحة، والثاني: أنها تدل على صوت الثعلب، يصبح، صبحا، وصوته الصباح، وهو ضابح[٩٠]

واختلف أهل المعاني في قوله تعالى : (والعاديات صبحاً فالموريات قدحاً فالمغيرات صبحاً فأثرن به نفعاً) [العاديات : ١-٤]، فعن ابن عباس: ان (العاديات) هي الخيل، وتصبح أي: تنحم، والضبيح: أصوات أنفاسها إذا عدون، تسمع من أفواهها صوتاً ليس بصهيل ولا حمحمة، ألم تر إلى الفرس إذا عدا يقول : أح أح تشبيها بالصباح، وهو صوت الثعلب في الأصل فاستعير للخيل[٩١]، وورد في (التحرير والتنوير (أنّ (الضبح) " اضطراب النفس المتردد في الحنجرة دون أن يخرج من الفم وهو من أصوات الخيل والسباع[٩٢]، وعن أبي عبيدة أن الضبح مثل الضبع، يقال: ضبح الفرس، وضبع: إذا حرك ضبعيه في مشيه،

([٨٣]) ينظر : التحرير والتنوير : ٩/١٠٩

([٨٤]) ينظر : معاني القرآن : النحاس :٣/٨١، والكشاف :٢/١٥٩

([٨٥]) ينظر : الكشف والبيان : ٤/٢٨٥، والمحرر الوجيز : ٢/٤٥٥، ومفاتيح الغيب : ١٥/٣٦٧

([٨٦]) ينظر : معاني القرآن وإعرابه : ٢/٣٧٧، ومعاني القرآن : النحاس : ٣/٠٨٢

([٨٧]) ينظر : معاني القرآن : الأخفش : ١/٣٣٧، والصحاح : ٢/٦٠٧ مادة (جار)، والكشف والبيان : ٤/٢٨٥

([٨٨]) ينظر : المحرر الوجيز : ٢/٤٥٥، ومفاتيح الغيب :١٥/٣٦٧، والتحرير والتنوير : ٩/١١٠.

([٨٩]) ينظر : مفاتيح الغيب : ١٥/٣٦٨

([٩٠]) ينظر : العين : ٣/١٠٩ مادة (ضبح)، وجمهرة اللغة : ١/٢٨٠ مادة (ضبح)، ومقاييس اللغة : ٣/٣٨٥ مادة (ضبح).

([٩١]) ينظر : العين : ٣/١١٠: مادة (صبح)، ومعاني القرآن : الفراء : ٣/٢٨٤، وجامع البيان : ٢٤/٥٥٧، ومعاني القرآن وإعرابه :٥/٣٥٣، ومفردات الفاظ القرآن : ٥٠١ مادة (ضبح)

([٩٢]) التحرير والتنوير : ٣٠/٤٩٨

وهو عدو دون التقريب[٩٣] وعن علي بن أبي طالب (عليه السلام) أنّ العاديات هي الإبل، يذهب إلى أول غزوة الإسلام لبدر وما كان مع المسلمين يومئذ إلا فرسان فرس للزبير وفرس للمقداد، إنما العاديات من عرفة إلى المزدلفة، ومن المزدلفة إلى منى في الحج[٩٤].

وبلحاظ المعنيين يختلف تفسير ما بعده " فمن قال العاديات الخيل، قال: هي الموريات قدحاً لأنها ثورى النّار بسنابكها إذا وقعت على الحجارة وهي المغيرات صبحا، ومن قال: العاديات الإبل، قال: الموريات قدحاً، الرجال؛ يتبين من رأيهم ومكرهم ما يُشبه النار التي تورى في القدح [٩٥]، والضبح من الخيل أظهر عند أهل العلم [٩٦] (والمتحصل أن الله) قد أقسم بالعاديات : جمع العادية، وهو اسم فاعل من العدو وهو السير السريع يطلق على سير الخيل والإبل خاصة، وهي الجاريات بسرعة والصبح : تصويت جهير عند العدو الشديد، ليس بصهيل ولا رُغاء ولا تُباح، بل هو غير المعتاد من صوت الحيوان الذي يصبح[٩٧].

وكان لهذا الصوت غير الإنساني موسيقى تؤذن بالشدة والعنف يناسب الجو الصاخب المعفر الذي تثيره الخيل الضابحة بأصواتها، القادحة بحوافرها المغيرة مع الصباح المثيرة للغبار[٩٨].

٢. أصوات الآلات :

اسم الآلة : اسم مشتق مصوغ من المصدر الثلاثي، لما وقع الفعل بواسطته، ويأتي على ثلاثة أوزان قياسية، وهي : (مفعل) كمخلب، و(مفعال) كمفتاح، و(مفعلة) كمكسحة، وقد خرج عن القياس ألفاظ منها: مُدْهُن ومُسْعُط ومُنْخُل، ومُنْصُل، ومُدق ، وقد أتى جامدًا على أوزان شتى، لا ضابط لها، كالفأس، والسكين[٩٩]

وقد تقدم ذكر الصور آلة في قوله تعالى : (ونفخ في الصور فإذا هم من الأحداث إلى ربهم ينسلون) [يس : ٥١]، " والنفخ في الصور : مثل ضرب للأمر التكويني بحياة الأموات الذي يعم سائر الأموات، فيحيون به ويحضرون للحشر كما يحضر الجيشُ ينفخ الأبواقي ودق الطبول[١٠٠]

ويعد (الناقور) من أصوات الآلات تمثيلا للأصوات غير الإنسانية يمكن بيانه كما يلي:

فقد ذهب أهل اللغة إلى أن الأصل في (النقر) أن يدل على فرع شيء حتى تهزم فيه هزمة، ثم يتوسع فيه، ومنه المنقار للطائر، والمنقار ما ينقر به الرحى، وهي تلك الحديدة، ونقرت الرجل : إذا صوت له بلسانك، وذلك بأن تلصق لسانك بنقرة حَنَكِكَ[١٠١] ومنه قوله تعالى : (فإذا نقر في النّاقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غيريسير)[المدثر : ١٠-٨]، والناقور : الصور الذي ينفخ فيه الملك إسرافيل يوم القيامة، وهو ينقر العالمين بقرعه، ووزن الناقور : فاعول، وهو زنة لما يقع به الفعل من النقر، وهو صوت النّسان مثل الصغير، والنقر في كلام العرب: الصوت[١٠٢] واختلف أهل المعاني في الوقت الذي ينقر في الناقور أهو

---

(٩٣) ينظر : مجاز القرآن : ٢/٣٠٧، وجمهرة اللغة : ١/٢٨٠ مادة (ضبح)، والمحكم والمحيط الأعظم : ٣/١٣٧ مادة (ضبح)

(٩٤) ينظر : جامع البيان :٢٤/٥٥٩، وإعراب القرآن : النحاس : ٥/١٧٣

(٩٥) الأضداد : أبو بكر الأنباري : ٣٦٣

(٩٦) ينظر : مقاييس اللغة : ٣/٣٨٥، والمحكم والمحيط الأعظم : ٣/١٣٧ مادة (ضبح)

(٩٧) ينظر : البحر المحيط :١٠/٥٢٦، وروح المعاني : ١٥/٤٤١، والتحرير والتنوير :٣٠/٤٩٨.

(٩٨) ينظر : التصوير الفني في القرآن : ١٢٦-١٢٧.

(٩٩) ينظر : المفتاح في الصرف : ٦١، وشذا العرف : ٩٧.

(١٠٠) التحرير والتنوير :٧/٣٠٨.

(١٠١) ينظر : العين : ٥/١٤٤ مادة (نقر)، ومقاييس اللغة :٥/٤٦٨ مادة (نقر)، ومفردات ألفاظ القرآن :٨٢١ مادة (نقر).

(١٠٢) ينظر : مقاييس اللغة :٥/٤٦٨ مادة (نقر)، والجامع لأحكام القرآن : ١٩/٧٠، والتحرير والتنوير : ٣٠٠-٢٩/٣٠١

في النفخة الأولى أم الثانية؟ فذهب بعضهم إلى أنها أولى النَّفختين[١٠٣]، وقال مجاهد وغيره : إنّ (الناقور) هو كهيئة البوق، ويعني به الثانية حين ينفخ إسرافيل في الصور[١٠٤]،

وقد فصل الرازي – في مفاتيحه في هذه المسألة[١٠٥] ومن ثم وصف ذلك اليوم بقوله : (فذلك يومئذ يوم عسير) أي : يوم شديد عسير (على الكافرين) الذين كفروا بالله وبأنبيائه صلى الله عليهم غير يسير، أي: غير سهل ولا هين، فأكد هذا العشر بنفي كل ظل لليسر فيه، فهو عشر كله، عسر لا يتخلله يسر، ولم يفصل الله (ل) أمر هذا العسر، بل ذكره مجملا مجهلًا يؤذن بالاختناق والكرب والضيق[١٠٦] ومن قضايا التعبير القرآني أنّ لفظة (الناقور) لم تستعمل في لغة التنزيل إلا في هذا الموطن[١٠٧] التي يعبر بها في بعض المواطن بالنفخ بالصور، من مثل قوله تعالى : (ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله) [الزمر: ٦٨]، وقوله تعالى : (يوم ينفخ في الصور وتحشر المجرمين يومئذ زرقا) [طه : ١٠٢]، فما العلة الدلالية في خصوصية هذا التعبير ؟ والجواب : أنّ التعبير بـ(الناقور) هنا أشد إيحاء بشدة الصوت ورنينه، فكأنه نقر يصوت ويدوي، ومن الثابت أنّ الصوت الذي ينقر الآذان (في الناقور أشد وقعاً من الصوت الذي تسمعه الآذان (في الصور) [١٠٨].

والمتحصل أنه قد تجسد في هذا اللفظ التداخل بين دلالة اسم الآلة وصيغة المبالغة وفي الآية إيحاء في رسم صورة الفزع الأكبر، والهول الشديد، والرعب المفاجئ الذي يحيط بالنفخ بالناقور، وهي معان مشتركة تخص يوم القيامة من ساعة النفير[١٠٩].

٣. تسمية بعض أسماء يوم القيامة بصفاتها :

من الأصوات غير الإنسانية تسمية بعض أسماء يوم القيامة بصفاتها، وقد تناثرت هذه الأسماء في لغة التنزيل تصويرا لشدة وهول ذلك اليوم العظيم، ومنها :

الطامة والصاحة والقارعة والراحفة [١١٠]، وهي في واقع الأمر صفات هذا اليوم الأخير القيامة [١١١]، يمكن بيان بعض منها تمثيلا لهذا الضرب كما يلي :

الطم :

تدل الطامة في الأصل على تغطية الشيء للشيء حتى يسويه به الأرض أو غيرها ومن ذلك قولهم: طم البقر بالتراب إذا ملأها وسواها وكبسها، وتقول : جاء السيل فطم على كل شيء، أي: علاه، ومن ثم قيل: فوق كل طامَّة طامَّة، ثم يحمل على ذلك فيقال للبحر : الطم، كأنه طم الماء ذلك القرار ؛ ولذلك سميت القيامة الطامة[١١٢]

---

(١٠٣) ينظر : معاني القرآن : الفراء : ٣/٢٠١، ومعاني القرآن واعرابه :٥/٢٤٦، وتهذيب اللغة : ٩/٩٢ مادة (نقر)، المحكم والمحيط الأعظم : ٦/٣٧٢ مادة (نقر)

(١٠٤) ينظر : جامع البيان :٢٣/١٨، ومعالم التنزيل في القرآن : ٥/١٧٤، والجامع لأحكام القرآن : ١٩/٧٠.

(١٠٥) ينظر : مفاتيح الغيب : ٧٠٣/٧٠٢-٣٠

(١٠٦) ينظر : الجامع لأحكام القرآن : ١٩/٧٠، وفي ظلال القرآن : ٦/٣٧٥٥

(١٠٧) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ٨١٠

(١٠٨) ينظر : في ظلال القرآن : ٦/٣٧٥٥

(١٠٩) ينظر: دلالة صيغة (فاعول) في القرآن الكريم : ١٢٢ – ١٢٣ (بحث منشور).

(١١٠) ينظر : التحرير والتنوير : ٣٠/٠٩٠

(١١١) ينظر : التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم :٣٥٣

(١١٢) ينظر : العين : ٧/٤٠٩ مادة (طم)، وتهذيب اللغة : ١٣/٢٠٩، مادة (طم)، ومقاييس اللغة : ٣/٤٠٦، مادة (طم)، ومفردات ألفاظ القرآن : ٥٣٢ مادة (طم)

ويروى عن المبرد: أن الطامة عند العرب الداهية التي لا تستطاع، وقد أخذت من قولهم: طم الفرس طميما إذا استفرغ جهده في الجري، وطم الماء إذا ملأ النّهر كله[١١٣]، ومن أمثال العرب قولهم : (جرى الوادي فطم على القري)، وهو مثل يضرب للأمر العظيم يجيء فيعم الصغير والكبير[١١٤]

ومنه قوله تعالى :(فإذا جاءت الطامة الكبرى يوم يتذكر الإنسان ما سعى) [النازعات:[٣٤-٣٥] والمراد بالطامة هي القيامة تطم على كل شيء، فتغمر ما سواها بعظيم هولها، وهي الصيحة التي يقع معها البعث والحساب والعقاب والعذاب والرحمة[١١٥]، والعرب إذا عظمت الشيء وصفته بالطامة[١١٦].

واختلف أهل المعاني في أي شيء هي الطامة الكبرى، فقال قوم إنها يوم القيامة لأنه يشاهد فيه من النار، ومن الآيات الباهرة الخارجة عن العادة ما ينسى معه كل هائل وذهب آخرون: بأنها النفخة الثانية التي عندها تحشر الخلائق إلى موقف القيامة وقال فريق آخر : أن الطامة هي اسم لذلك الوقت الذي ذكره الله تعالى في قوله : (يوم يتذكر الإنسان ما سعى وبزت الجحيم لمن يرى) [النازعات ٣٥ – ٣٦]، ويحتمل أن تكون تلك الساعة هي الساعة التي يساق فيها أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى الثار[١١٧].

وثمرة ما تقدم أن وصف يوم القيامة بالطامة، يؤذن بالشدة والهول، ثم بُولِغ في تشخيص هولها بأن وصفت بـ (الكبرى)، فكان هذا أصرح الكلمات لتصوير ما يقارن هذه الحادثة من الأهوال[١١٨]، وقيل : إنها وصفت بالكبرى تأكيدًا [١١٩]، ولا مانع من جمع الدلالتين تصويرا لتلك الحادثة الهائلة.

الصح :

حكى الزجاج – كما يروي الرازي في مفاتيحه – أن أصل الصح في اللغة : " الطَّعْنُ والصَّنُّ، يقال : صغ رأسه بحجر أي شدخه، والغراب يصح منقاره في دبر البعير أي: يطعن، فمعنى الصاحة الصاكة بشدة صوتها للآذان "[١٢٠]

وهو ما ذهب اليه بعض أصحاب المعجمات العربية، فالصاحة أصل يدل على صوت من الأصوات، والصاحة: القيامة، سميت بذلك ؛ لأنها تصح الآذان، أي: تُصيبها بصوت نحو وقع الصخرة على الصخرة، ويقال : سمعت صخ الصخرة وصخيخها إذا ضربتها بحجر أو غيره فسمعت لها

صوتا، وكل صوت شديد نحو وقع الصحرة على الصخر وما أشبهه: صخ[١٢١]، وورد في مفردات الراغب أن الصالحة: "شدة صوت ذي النطق، يقال: صع يصح صحاً فهو صاخ "[١٢٢]

وذلك في قوله تعالى : (فإذا جاءت الصاحة يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) [سورة عبس : ٣٧-٣٣].

---

(١١٣) ينظر : الكشف والبيان : ١٠/١٢٨، والجامع لأحكام القرآن :١٩/٢٠٦

(١١٤) ينظر : جمهرة الأمثال :١/٢٦٠

(١١٥) ينظر : معاني القرآن : الفراء : ٣/٢٣٤ وجامع البيان :٢٤/٢١١ ومعاني القرآن واعرابه :٥/٢٨١

(١١٦) ينظر : إعراب القرآن : النحاس : ٥/٩٢

(١١٧) ينظر : الكشف والبيان : ١٠/١٢٨، والكشاف :٤/٦٩٧، ومفاتيح الغيب : ٣١ /٤٨، والبحر المحيط :١٠/٤٠١

(١١٨) ينظر : التحرير والتنوير : ٣٠/٩٠

(١١٩) ينظر: حدائق الروح والريحان : ٣١/٩٠

(١٢٠) مفاتيح الغيب : ٣١ / ٦١، وينظر : جمهرة اللغة : ١/١٠٥ مادة (صخخ)، والجامع لأحكام القرآن :١٩/٢٢٤

(١٢١) ينظر : العين :٤/١٣٥ مادة (صخ)، وديوان الأدب :٣/٥٩، ومقاييس اللغة : ٢٨١/٢٨٢-٣ مادة (صخ)

(١٢٢) مفردات ألفاظ القرآن : ٤٧٦ مادة (صخ)

والملاحظ أن الآية – محل –الدرس قد ابتدأت بقوله : (فإذا) داخلة على الفعل الماضي (جاءت) [١٢٣]، وإذا جاء (إذا) مع الماضي فهي بمعنى المستقبل، وقد تقدم أن الصاحة: القيامة، تصح الأسماع أي : تصمها فلا يسمع إلا ما يدعى فيه لإحيائها ، واللفظة في حقيقتها إنما هي لنفخة الصور المشار إليه بقوله : يوم ينفخ في الصور[الأنعام / ٧٣]، ويستعمل هذا اللفظ في الداهية التي يصم نبؤها الآذان لصعوبته يقال: صنّ الحديثه، مثل: أصاخ له فوصفت النفخة بالصاخة مجازا، والمشهور أن المراد بها النفخة الثانية، فالناس يصخون لها يفر منهم لاشتغاله بما هو مدفوع إليه، ولعلمه أنهم لا يغنون عنه شيئا فجعلت مستمعه مجازا في الظرف أو الإسناد[١٢٤] فاذا كانت الصاخة النفخة الثانية على المشهور كما تقدم فان ذلك يؤكد انها يوم القيامة حين يقوم الناس الله رب العالمين بعد هذه النفخة[١٢٥]، فصارت الصاحة في القرآن علما بالغلبة على حادثة يوم القيامة وانتهاء هذا العالم، وتحصل فيه صيحات منها نفحة الصور التي تبعث عندها الناس[١٢٦]

ثم ذكر الله تعالى فرار المرء من القوم الذين معهودهم أن لا يفر عنهم في الشدائد ، ورتبهم (عز وجل) الأول فالأول محبة وحنوا، فبدأ بالأخ، ثم بالأبوين ؛ لأنهما أقرب منه، ثم بالصاحبة والبنين ؛ لأنهم أقرب وأحب، كأنه قال يفر من أخيه بل من أبويه، بل من صاحبته وبنيه، وقيل : يفرّ منهم حذرا من مطالبتهم بالتبعات[١٢٧] والصاخة لفظ ذو جرس عنيف، نافذ يكاد يخرق صماخ الأذن، وهو يمهد بهذا الجرس العنيف للمشهد الذي يليه، مشهد المرء يفر وينسلخ من ألصق الناس به الذين تربطهم به وشائج وروابط لا تنفصم، ولكن هذه الصاخة تمزق هذه الروابط تمزيقا، وتقطع تلك الوشائج تقطيعا[١٢٨] ومن لطائف التعبير القرآني، وخصوصية الاستعمال ما قد يسأله السائل عن علة تسمية ذلك اليوم ومن بالطامة الكبرى في قوله تعالى في سورة النازعات : (فإذا جاءت الطامة الكبرى) [النازعات : ٣٤]، وعلة تسميته بالضاحة، في سورة عبس في قوله تعالى: (فإذا جاءت الصاحة)[سورة عبس : ٣٣]، وهل يصلح أن تستعمل الأولى مكان الثانية والثانية مكان الأولى؟

والجواب أن الله (عز وجل) لما ذكر في سورة النازعات أهوال يوم القيامة: (يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة) [النازعات : ٦–٧].. الآيات ثم ذكره خبر فرعون وأخذه نكال الآخرة والأولى، ناسب تعظيم أمر الساعة، وجعلها الطامة التي تطم على ما قبلها من الشدائد والأهوال المذكورة، وأما الصاخة الواردة في فقد تقدمتها (قتل الإنسان ما أكفره)[عبس : ١٧]: الى قوله تعالى : (ثم أماته فأقبره) سورة عبس [عبس : ٢١]، فناسب ذلك ذكر الصيحة الناشرة للموتى من القبور، وهي الصاخة) ومعناه: الصيحة الشديدة التي توقظ النيام لشدة وقعها في الآذان [١٢٩]، وقيل : " وخصت النازعات بالطامة ؛ لأن الظم قبل الصخ، والفزع قبل الصوت فكانت هي السابقة، وخصت (عبس) بالصالحة؛ لأنها بعدها، وهي اللاحقة "[١٣٠]

والملاحظ حين مراقبة لغة التنزيل أن جذر لفظتي (الطامة) [١٣١]، و(الصاخة) [١٣٢] ومشتقاتهما لم يردا في لغة التنزيل إلا مرة واحدة في الآيتين المتقدمتين وصفا لذلك المشهد القرآني الشديد، ولعل في ذلك إشارة الى أن حدوث ذلك الطم الذي يعلو فيغمر

---

(١٢٣) ينظر : معالم التنزيل :١/١٠١

(١٢٤) ينظر : معاني القرآن واعرابه :٥/٢٨٧، والمحرر الوجيز :٥/٤٤٠، والكشاف :٤/٧٠٥، وروح المعاني ١٥/٢٥١

(١٢٥) ينظر : التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم : ٣٦٧

(١٢٦) ينظر : التحرير والتنوير : ٣٠/١٣٤–١٣٥.

(١٢٧) ينظر : الكشاف : ٤/٧٠٥، و المحرر الوجيز : ٥/٤٤٠

(١٢٨) ينظر : في ظلال القرآن : ٦/٣٨٣٤

(١٢٩) ينظر : درة التنزيل : ١٣٣١/١ – ١٣٣٣، وكشف المعاني في المتشابه من المثاني : ٣٧٣

(١٣٠) بصائر ذوي التمييز :١/٤٩٩–٥٠٠

(١٣١) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ٥٢٦

(١٣٢) ينظر : العجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : ٤٥

ما سواه، وحدوث صخ الآذان ذاك، هما مشهدان لا يتكرران بالكيفية نفسها في لغة التنزيل، فناسب ذكر اللفظتين مرة واحدة تبعا لذلك، والله أعلم.

الخاتمة

بدأت عملي هذا بالحمد والثناء على الله (عز وجل)، وأختمه بالشكر له تعالى شكراً يليق بعظمته على عطائه وتوفيقه، إذ يسر لي إنجاز ما عزمت عليه، وحقق لي ما صبوت إليه، وقد توصل البحث إلى جملة نتائج نذكر منها ما يأتي:

- تناثرت أقوال اللغويين وأهل التفسير في التعبير عن الفضلات الصوتية والأصوات غير الإنسانية في مدوناتهم، ولم نجد من كتب في هذا العنوان بحسب اطلاعنا .
- تعد الفضلات الصوتية والأصوات غير الإنسانية من الأصوات فوق التركيبية التي تندرج بما يعرف بـ (علم الأصوات الوظيفي، إذ لا نكاد أن نعثر على أثر كبير لمخارج الأصوات وصفاتها فيهما، يقابله (علم الأصوات النطقي) الذي يتخذ من جهاز النطق وتشريحه ومخارج الأصوات وصفاتها ميادين للبحث في هذا العلم .
- تبين أن الفضلات الصوتية الواردة في لغة التنزيل كالضحك، والبكاء، والصياح هي من الأصوات الطبيعية التي يكون منشؤها من الغرائز والطبائع، والغالب فيها أنها قد وردت في سياق التهويل والشدة.
- قد يأتي البكاء فضلة صوتية بقصد التباكي، أي: تكلف البكاء بلحاظ القرائن السياقية، وقد يكون البكاء والضحك بصيغة الأمر فضلة صوتية أو أصوات غير كلامية، ويراد به الخبر ضربا من التعاور بين أسلوب الإنشاء وأسلوب الخبر نزولا لدلالة النص القرآني.
- لم يخل البحث من ذكر بعض فوائد التعبير القرآني، وخصوصية الاستعمال في لغة التنزيل، وقد تتشابه بعض التراكيب القرآنية فيظن أنها ضرب من التكرار، والمتحقق أنها ليست كذلك بدلالة السياق، والمسرح اللغوي للخطاب.
- استعار القرآن الكريم بعض الألفاظ الدالة على الصوت ذات الأصول الدالة على البهائم كالضباء والوحوش أو ما لا بال له كالشجر والنبات للتعبير عن الفضلات الصوتية والأصوات غير الإنسانية إمعانا في ذلة المخالفين لأوامر الله.
- قيل عن الطامة والصاخة: إنهما من أسماء يوم القيامة، والأوفق أنهما من صفاتها تصويرا لشدة ذلك اليوم وأهواله، والملاحظ أن الجذر اللغوي ومشتقاته لم يذكر إلا مرة واحدة في لغة التنزيل، في إشارة إلى حدوث تلك الواقعة وكيفيتها مرة واحدة فناسب هذا الاستعمال اليتيم ذلك الحدوث، والله أعلم.

روافد البحث

القرآن الكريم

أولا : الكتب المطبوعة :

- الإبانة عن معاني القراءات، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت : ٤٣٧هـ) ، تحقيق : د.عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، د.ت.
- أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، أبو القاسم محمود بن حمزة الكرماني (ت : نحو ٥٠٥هـ، تحقيق : عبد القادر أحمد عطا، مراجعة وتعليق أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة، د.ت.

- الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس، مطبعة نهضة مصر، د.ت إعراب القرآن، أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس :(ت: ٣٣٨هـ)، وضع حواشيه وعلق عليه عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢١ هـ.
- الأفعال، أبو عثمان سعيد بن محمد السرقسطي (ت: بعد ٤٠٠ هـ)، تحقيق : حسين محمد محمد شرف، مراجعة محمد مهدي علام، مؤسسة دار الشعب القاهرة، مصر، ١٩٧٥ م.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين أبو طاهر الفيروز آبادى (ت) ٨١٧هـ)، تحقيق : محمد على النجار، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، د.ت.
- التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، دراسة في الدلالة الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية، د. محمود عكاشة، دار النشر للجامعات، القاهرة، ٢٠١١م.
- التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم / دراسة دلالية مقارنة، عودة خليل أبو عودة، مكتبة المنار، الأردن، ط ١، ١٩٨٥م.
- التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب (ت: بعد (١٣٩٠هـ)، دار الفكر العربي –القاهرة، د.ت.
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت: ٦٧١هـ) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط ٢، ١٩٦٤م.
- جمهرة الأمثال، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري نحو (ت ٣٩٥هـ)، ضبطه وكتب هوامشه د. أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٨٨م.
- جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد :(ت: ٣٢١هـ). تحقيق : رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين بيروت، ط ١، ١٩٨٧م.
- حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين بن عبد الله الهرري إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة بيروت – لبنان، ط ١، ٢٠٠١ م.
- درة التنزيل وغرة التأويل، أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب الإسكافي (ت: ٤٢٠هـ)، دراسة وتحقيق وتعليق د. محمد مصطفى آيدين، جامعة أم القرى،ط ١، ٢٠٠١ م.
- دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو، مصر، طه، ١٩٨٤م.
- الدلالة الصوتية في اللغة العربية، د. صالح سليم عبد القادر الفاخري، المكتب العربي الحديث،الاسكندرية، د.ت.
- الدلالة اللغوية عند العرب، د. عبد الكريم مجاهد، دار الضياء للنشر، عمان ١٩٨٥م.
- ديوان الأدب، أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي (ت: ٣٥٠هـ)، تحقيق: دكتور أحمد مختار عمر، مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- الزاهر في معاني كلمات الناس، أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري :(ت: ٣٢٨هـ)، تحقيق : د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط ١، ١٩٩٢م.
- شذا العرف في فن الصرف الشيخ أحمد الحملاوي، ضبطه وشرحه.د. محمد أحمد قاسم، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ٢٠٠٩م.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت:٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، ط ٤، ١٩٨٧ م ٠
- علم الدلالة، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، طه، ١٩٩٨م.
- علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، د. محود السعران، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، د.ت.

- العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: (١٧٥هـ)، تحقيق : د مهدي المخزومي د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ت
- غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلام (ت) ٢٢٤هـ)، تحقيق : د. محمد عبد المعيد خان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الدكن، ط ١، ١٩٦٤م.
- فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ
- كشف المعاني في المتشابه من المثاني أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحموي (ت: ٧٣٣هـ)، تحقيق:.د عبد الجواد خلف، دار الوفاء – المنصورة، ط ١، ١٩٩٠م.
- الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أبو إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي :(ت: ٤٢٧هـ) تحقيق الإمام أبي محمد بن عاشور ، مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط ١، ٢٠٠٢ م.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم جار الله الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي– بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ
- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، أبو الفتح عثمان بن جني :(ت: ٣٩٢هـ)،وزارة الأوقاف المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر، ١٩٩٩م.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية (ت: ٥٤٢هـ): تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ
- المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده : (ت: ٤٥٨هـ) تحقيق : عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط ١، ٢٠٠٠ م.
- معالم التنزيل في تفسير القرآن، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت :٥١٠هـ)، تحقيق : عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ.
- معاني القرآن، أبو جعفر أحمد محمد النحاس (ت (٣٣٨هـ)، تحقيق : محمد علي الصابوني، بن جامعة أم القرى – مكة المرمة، ط ١، ١٤٠٩هـ.
- معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء :ت (٢٠٧ هـ)،، تحقيق : أحمد يوسف النجاتي وآخرون، الدار المصرية للتأليف والترجمة – مصر طا، د.ت.
- معجم علم الأصوات، د. محمد علي الخولي، منشورات جامعة الرياض، ط ١، ١٩٨٢م.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠١م.
- المفتاح في الصرف، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت: ٤٧١هـ)، تحقيق الدكتور علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط ١، ١٩٨٧م.
- مفاتيح الغيب، أبو عبد الله محمد بن عمر فخر الدين الرازي (ت: (٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث بيروت، ط ٣، ١٤٢٠هـ العربي – بيروت.
- مفردات ألفاظ القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ)، تحقيق : صفوان عدنان الداودي، دار القلم الدار الشامية – دمشق بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ
- مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس :(ت ٣٩٥هـ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.

ثانياً : البحوث المنشورة :

- دلالة صيغة (فاعول) في القرآن الكريم، رجاء عبد الرحيم خاشع، مجلة دراسات تربوية، العدد الثامن عشر، نيسان، ٢٠١٢م.م